

# هجرة اليهود وغضبة العرب

■ لم يبلغ، السوفيات بعد قمة بغداد. لقد سغت موسكو حثيثا لمنع انعقادها. وعندما تبين أنها ستعقد، سعوا لاقناع اصدقائهم بعدم حضورها. وعندما ظهر انها ستعقد بمن حضر من القادة العرب، حاولوا جاهدين ان يخفوا من لهجة قراراتها. وعندما صدرت هذه القرارات، راحوا يشكون بفالنتها. وعندما لم ينفذ تشكيكهم بها، حاولوا تجاهلها.

وسبب هذا الموقف السلبي على طول الخط، تخوف عميق من ان تكون القمة غفلة لامر واحد، وهو العمل العربي لوقف هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل. لقد فوجئت موسكو بحجم الرد العربي (الكلامي حتى الساعة) على هذه المسألة، وبالتالي تخوفت من استفلال بعض الانظمة العربية للخرج السوفياتي، بهدف قطع الروابط الهشة التي لا تزال قائمة بين موسكو وبعض الاوصام العربية او بهدف تدمير الروابط الجديدة التي تسعى موسكو بعناء لتشسيسها مع دول الخليج المحافظة. واختارت موسكو العمل لتخفيف الخسائر. فعندما التقى الرئيس السوري القادة السوفيات لم يجد عندهم موقفا مبدئيا سلبيا من مسألة هجرة اليهود فحسب، وانما وجد عندهم ايضا تفهما لمقاطعة قمة بغداد. ولا ريب ان هذه التفهم يفسر، ولو جزئيا، التفهم الموازي لضائقة دمشق المالية، وبعض التسهيلات التي استطاعت سورية الحصول عليها في مجال دفع ديونها العسكرية الباهظة للاتحاد السوفياتي. اما الرئيس المصري الذي تلاه في الكرملين، فقد استقبل بحرارة بالغة، ولا يزال المسؤولون هناك يشيدون باعتداله وتفهمه للموقف السوفياتي. ويقول بعض المسؤولين هناك ان الموقف السوفياتي من كعب ديفيد كان خاطئا من اساسه، وان هذه الاتفاقات هي بالذات علامة ممتازة لضرورة الانتقالات الى حل النزاعات بالوسائل السلمية.

لكن هجرة اليهود هي المسألة المحورية في المرحلة الحالية. والاتحاد السوفياتي مخرج ازامها ايما حرج، لان الحقيقة ناصعة للعيان: بينما لا يزال قانون هجرة المواطنين السوفيات قيد الدرس في احدى لجان البرلمان، نرى عشرات الألوف من اليهود يهاجرون الى اسرائيل. هناك اذن صفقة ما، كما يقول العرب، وهو امر ينفيه السوفيات تماما. ويشير البعض الى زيارة رئيس المنظمات اليهودية الى موسكو منذ نحو عام ونصف العام، واعداد بدعم مالي اميركي، وفي الايام مبدئيا تايبده لبيريسترويك. بينما يتخذ البعض الاخر ضعف التدابير التي اتخذتها موسكو للتأكد من امكان عودة

المهاجرين الى الاتحاد السوفياتي ان هم شاؤوا ذلك.

ولا يجد العربي، حتى بين اصدقائنا القريبين تقليديا من موسكو، اي تبرير مقنع لدى الرفاق، السوفيات لوقفهم من الموضوع. فحقوق الانسان لا تفسر ان يعطى السوفياتي اليهودي حقوقا ليست لغيره من المواطنين السوفيات، او ان ينال حقوقه على حساب حقوق الشعب الفلسطيني. ومن الحجج الطريفة، بل المذيرة للسخرية، التي سمعناها في موسكو، وعلى اعلى المستويات، هي القول بان العرب انفسهم يساعدون اسرائيل بايداع اموالهم في المصارف الاميركية، مما يسمح لواشنطن باستعمالها لمساعدة اسرائيل. ومن السوفيات من ذهب ابعد للوعد بان موسكو قد تبديل سياستها من هذا الموضوع، لو تجاوب العرب الاغنياء مع دعواتها المتكررة للاستثمار في الاتحاد السوفياتي.

فالموضوع المالي هو بيت القصيد، والسوفيات مستأؤون من ضعف التجاوب العربي. فمن اصل ١٧٠٠ مشروع مشترك قائم، هناك اقل من عشرين دخلت فيه رساميل عربية. وبما ان عنوان المرحلة هو محاولة استقطاب الرساميل والتكنولوجيا الغربية، وبما ان الولايات المتحدة هي الدولة العظمى في الغرب، وبما ان الولايات المتحدة تؤيد اسرائيل، فالنتيجة واضحة، وهي محاولة تهميش الصراع العربي - الاسرائيلي في علاقة موسكو بالغرب، وعدم اثارته قدر الامكان، خوفا من تحوله عثرة امام الدعم الاقتصادي الغربي لبيريسترويك.

هذا يعني ان الحوار مع موسكو في هذا الموضوع، في هذه المرحلة، نوع من حوار الطرشان، خصوصا انه يقترن بمقولة سوفياتية اخرى عن ضرورة الحل السلمي لكل النزاعات الاقليمية. وعندما يشار للرفاق، بان العرب لم يعارضوا لا الحل السلمي، ولا قرارات مجلس الامن، ولا الاعتراف باسرائيل، ولا الحوار معها ... وحتى مبادرة بئرك، فانهم يستكون، او هم ينتقلون الى التافك من تصلب ليكود، ومن حماقة شامير. ويتوقف الحديث. ثم يفتح موضوع توريد السلاح. وقد

## غسان سلامة \*

يشير العربي انذاك الى صعوبة الحصول على بعض الاسلحة السوفياتية المتطورة. فينبري غير «خبير» للقول ان موسكو لا تريد ان تكون مجرد تاجر سلاح في العالم الثالث، وانها لم توجد لتدعم كل الانظمة الديكتاتورية في العالم. فالمطلوب هو فقط قدر من «الاكتفاء المعقول» (وقد سمعنا العبارة مرارا وتكرارا) ومفادها ان لكل دولة الحق في اقتناء السلاح الكافي للدفاع عن نفسها (او اكثر بقليل)، وليس لها الحق في محاولة الحصول على اكثر.

بكلام اخر، ليست العلاقة بين العرب والسوفيات ابدا على ما يرام، ولا هي مقبلة، في ما يبدو، على تحسن ملموس. اما بعض السوفيات المؤيدين اجمالا للعرب، فيبدو كأنهم يخجلون عن التعبير عن عواطفهم، لان تايبده العرب ليس «على الموضة» داخل البيروقراطية السوفياتية هذه الايام، بل ان انتقاد العرب، وانظمتهم وسياساتهم من دون تفصيل بين «تقدمي» و«رجعي»، هو علامة الزمن الحاضر. وقد يبالغ بعض محاورينا الى حد اتهام العرب بتمويل حركة انفصال الجمهوريات الاسلامية عن الاتحاد السوفياتي، وبتشجيع الحركات الاصولية الدينية. وقد يكون هذا الامر صحيحا في احوال قليلة، لكنه ليس ابدا لب الموضوع.

لب الموضوع يراه بعض محاورينا السوفيات في وجود «لوبي» صهيوني نشط جدا في موسكو، يتحرك من خلال دزينة من المراكز الثقافية، وحوالي عشرين جمعية يهودية، تسعى في الظاهر لاحياء الثقافة اليهودية وفي الواقع للدعوة للفكرة الصهيونية. ولكن مخاطبنا الذي يبوح لنا بالامر، يؤكد لنا انه يعاتب بشدة من جانب زملائه حين يذكر الموضوع. ومصيبة العرب من كل هذا ان الجهاز الحكومي يبدو منخرطا في اللعبة خوفا من ردة فعل اميركية، بينما التيار الشوفيني الروسي هو ايضا مرتاح لهجرة اليهود السوفيات، لا خوفا من الغرب، بل بسبب عداة مستوطن للسامية، انفجر اليوم بحدة، ولا يانف بعض قادة التيار الشوفيني الرسولي من التعبير



وتحضره الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن. أما الحل فيقوم على عودة الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ الى اهلها وتمكين الشعب الفلسطيني من تنفيذ حقه في تقرير المصير، وبقاء كل الدول القائمة داخل حدود امانة ومعترف بها. ولا يتأذى ميكل للنحاس امام ترداد هذه المقولات الا حين يضيف مخاطبك «افكارا جديدة، من نوع تفهم القلق الاسرائيلي في موضوع الامن، او حين يقترح عليك امكان اجراء حوار مباشر بين اسرائيل والفلسطينيين في موسكو. وعندما قد تعلن موافقتك على ذلك، يضيف مخاطبك انه لاسف هناك الان حكومة ليكود المتشددة في اسرائيل، وهي ترفض الحوار. وبما انك عاجز عن تناسي نوع الحكومة الاسرائيلية القائمة، لا في موسكو ولا في غيرها من العواصم، فإن ميكل للنحاس يتزايد من جديد.

الواقع ان تقوية العلاقات السوفياتية - الاميركية تتطلب من موسكو موقفا غير عدائي في الاقل من اسرائيل. وهذا تحول واضح وصريح، لا يقدر السوفيات على اخفائه، ولا يستطيع اصداقك موسكو بين العرب عدم الاقرار به. والواضح ان موسكو ليست مستعدة للتضحية التامة بعلاقاتها العربية امام ضرورة ارضاء واشنطن، وانها غير مستعدة (بعد للتنازل هنا، كما تنازلت للغرب في بعض المناطق الاخرى، كاميركا الوسطى او افريقيا او شرق اسيا.

واذا كان الهاجس الاقتصادي هو الهاجس المهيمن في موسكو، فهذا يعني ان الاتحاد السوفياتي يسعى في منطقتنا لصدقات من نوع جديد غير التي عهدناه عنه في السابق. وهو يجاهر بذلك علنا، ويسمي مسؤولوه البلدان العربية الثرية المحافظة التي يود تمكين علاقاته معها. وان كان من امل، فهو ان تسعى هذه البلدان الثرية التي يحاول السوفيات كسب ودها، للاستفادة من هذه المحاولات، لا للحصول على فرص للاستثمار المالي وحسب، ولا لتمويل بناء المساجد وترميمها في اسيا الوسطى فقط، وانما ايضا للدفاع عن الموقف العربي الذي لم يعد اصداقك موسكو القدامى في المنطقة قادرين على اقناعها به بمفردهم.

... اما موسكو نفسها، فانك تغادرها، عربيا كنت ام لا، برغبة واحدة، وهي العودة اليها في القريب. فبعض كبير من تاريخنا المعاصر يصنع الآن هناك. وان كنا عاجزين عن صنع التاريخ، فلا ضير من الذهاب للتفرج على من يصنعونه!

\* استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى.

عنه في العلق.

وقد يسأل العربي اصحابه السوفيات: ما العمل؟ فيجيبوه بتحليل طويل عن بيرسترويكا، مدعين اننا نحن معشر العرب لم نفهم منها شيئا. وعندما يحاول العربي ان يقول انه يحاول فهمها، يدخلون في تفسير عن اهمية الراي العام السوفياتي في المرحلة الراهنة. فنحسب بحماس خروج الراي العام هذا من سياته الطويل. يقولون لك انذاك: هذا الراي العام عليكم كسبه بكل الوسائل كانشاء المراكز الثقافية العربية في موسكو، واصدار النشرات باللغة الروسية، والتوظيف المالي في الاقتصاد المحلي. وماذا بعد؟ قد يشيرون عليك انذاك بالاهتمام بالاعضاء المسلمين في البرلمان السوفياتي، عليهم يوازنون اللوبي الصهيوني بتعاطفهم مع العرب. وعندما تقول ان الاتصال بالمسلمين دون غيرهم من السوفيات نوع من التدخل في اللعبة السوفياتية الداخلية، يعترفون بان هذا قانون اللعبة، وبان نشوء اللوبيات، حتى الدينية منها، على الطريقة الاميركية، لم تخرّب الولايات المتحدة، فلماذا هي سيئة للمصلحة السوفياتية؟

دخلنا هذا المنطق، واكتشفنا ان زعيما لبنانيا يوظف في مطعم، وتاجر اردنيا قريبا للقلب يوظف في مطعم اخر، ومجموعة مالية خليجية على وشك فتح مصرف اسلامي وفندق ومطعم، بينما هناك بعض شركات المقاولات السورية تعمل في قطاع البناء، وتسهم الكويت في البحث عن النفط، كما قد ينشأ قريبا مركز ثقافي عربي. لكن مهمة اكتساب ود الراي العام السوفياتي باسره ومن اساسه عملية شاقة وطويلة. ولا يجد العربي التائه جوابا على سؤال يقلق مضجعه امام هذه المحاضرات المملة عن ضرورة كسب ود الشعب السوفياتي فردا فردا: لماذا على العرب ان يدفعوا ثمن انتقال الاتحاد السوفياتي الى الديمقراطية، بينما تستفيد اسرائيل بهذا الشكل الوقح منها؟

وتصاب بالنحاس الشديد عندما ينتقل الحديث الى وسائل حل النزاعات. فالكلمات تعرفها منذ زمن بعيد وهي لم تتغير كثيرا، مما قد يحمل بعض العرب للاطمئنان السهل على صحة العلاقة «بالصديق السوفياتي»: مؤتمرا دولي، تمثل فيه كل الاطراف،